كلمة الأستاذ عز الدين التنوخي (١)

سيدي الرئيس ، إخواني الأفاضل

إنكم لتعلمونَ أن غاية مجمعنا العلميّ العربيّ منذُ نشأته الأولى هي المحافظة على سَلامة اللغة العربية وصيانة مادّتها ، ولذا كان مما يحقّق أُمنيته السامية هذه حسنُ اختيار أعضائه المتمكّنين من لغتهم القومية ، والواقفين على أسرارها ، المفتونين بمزاياها ، والعاملين على نشر تُراثها ، وَإحيائها بالمصطلحات العلمية ، أو بألفاظ الحضارة من لُغة الحياة العامّة . وممّن لا يَترخّصون في تراكيبها وأساليبها ، ولا يلجأون إلى التوليد والتعريب إلاّ بعد مراجعة كتب السلف اللّغويّة والعلمية .

إنّ حياة المجمع هي بحياة أعضائه العاملين وبحسن اختيارهم ممّن لا يَشغَلهم عن مجمعهم ولا عن لغتهم شاغلٌ يُنسيهم ما اختيروا لأجله ، وممّن يرى المجمع فيهم العَوْنَ على النّهوض بأعبائهِ ، والقيام بثِقال أعماله ، الاستاذ الفاضل محمد المبارك الذي نستقبله ونرحّب به في هذه الساعة خلفاً لسلفه واستاذه اللّغويّ العلامة الأستاذ محمد سليم الجندي رحمه الله .

وما اختارني المجمع العلميّ اليوم لأقول كلمتي في استقبالك أيّها الصديق الفاضل المبارك إلاّ لما عهدناه فيك ، ومن قبلُ في جَدّكَ وأبيك من حُبّ العربية الفصحى والسعي في نَشْرها بالتدريس والتأليف ، وعسى أن تكون كلمتي هذه كما أعتقد خلواً من المبالغة لأني بصداقتي لأبيك في مرحلةٍ من العمر طويلة قد عرفتك حقّ المعرفة صغيراً وكبيراً ، فَشَهِدتُ توجيه والدك لك لمقاصد

---

(١) ألقاها يوم الخميس في ١ شباط ١٩٦٢ في حفلة استقبال العضو العامل الجديد الأستاذ محمد المبارك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدين وأصول العربية ، وكأنما كان يرى بنور فراسته من مخايلك أنك ستحلّ يوماً محله من المجمع العلميّ العربيّ ، وأنك بصدق دراستك للعربية وآدابها ستنضمّ إلى إخوانك المجمعيين الذين جمعتهم كلمةُ العلم ونظمتهم لُحمة الأدب ، وبانضمامكَ إلينا اليوم نرى أننا لم نفقد أخانا الراحل الفاضل والدك الشيخ عبد القادر المبارك جاد الغيثُ ثراه !

إن المشتغلين بالمبارك من علمائنا في اللغة كثير : منهم الإمام الحافظ عبد الله بن المبارك الذي جمع بين العربية والحديث والفقه ، ومنهم المبارك بن أحمد بن المبارك اللّخميّ الذي اشتهر بالرّسوخ في العربية والأدب والتاريخ ، والمبارك بن محمد الشيبانيّ ، المعروف بابن الأثير ، وهو صاحب النّهاية في غريب الحديث ، وشقيق صاحب المثل السائر الذي أفاد كل كاتب وشاعر ، والاستاذ محمد المبارك سَمِيُّ هؤلاء هو من دَوحةٍ بارَكَ الله لدمشق برجالها ، أوّلهم جَدُّه الشيخ محمد المبارك الكبير الجزائريّ الحسنيّ الذي نشأ في عصر كان فيه علماؤها لا يُعْنَون إلا بالنحو والصرف والفقه والتفسير والحديث والتصوّف فامتاز عليهم مع ما عرفوا من العلم باهتمامه باللغة العربية وآدابها ، فكان أوّل مَن أحيا قراءة المقامات الحريرية بدمشق ، وكتبَ لطلاّبه شرح عشر مقامات منها فانتفعوا بها ، وحبّبهم بلغتهم العربية في دولة كان موظفوها يفاخرون بالتراطن بالتركية ، ولفت أنظار شبوخ الدين إلى كتب اللّغة العربية التي لا يُفهم كتابُ الله وسنة رسوله إلا بدراستها والوقوف على أسرارها .

وكان من وَلَع الشيخ المبارك الكبير بلغته واهتمامه بنشرها بين أبنائه أنه بعد طبع لسان العرب دخل منه دمشق نسختان ، فاشترى إحداهما وأهداها لابنه وخليفته في اللغة والأدب زميلنا الشيخ عبد القادر في السنة الهجرية ١٣٢٢ ، وأهدى اليه معها تاج العروس ، وهما أكبر كتب اللغة العربية المطبوعة ، وله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من الآثار الأدبية : نَضْرة البهار في محاورة الليل والنهار ، وبهجة الرائح والغادي في محاسن الوادي ، وتَرَكَ لورثةِ علمه وأدبه خزانة كتب مباركة في اللغة والنحو والفقه والتصوف ، ومنها كتاب الحِسْبة للإمام العظيم ابن تيمية الذي كان لا يحاربه إلا الحشويّون المقلّدون .

وبفضل هذه الرعاية من الوالد لولده ، بما كان يُهدي اليه من كتب اللغة ، وبما كان يُقبسه إياه من دروس العلم والأدب ، نَشأ الشيخ عبد القادر المبارك مَفتوناً باللغة وآدابها ، وما زال يَستضيء بمشكاة والده حتى أصبح في اللغة ممن يُرمى بالأبصار ، واهتمّ بتدريسها والتأليف فيها فشرح المقصورة الدُّرَيدية وأعانَ في تحقيق المخطوطات النفيسة كسيرة ابن سيّد الناس التي قرأناها في منزل صديقنا رحمه الله أبي جعفر الأمير طاهر الحسني ، وعارضناها على مخطوطة جَدّه الأمير البطل المجاهد عبد القادر ، وشاركنا في تحقيقها الشيخ عبد القادر المغربي ، ثم طبعت هذه السيرة الجليلة في ثلاث مجلدات بالقاهرة ، وكان صديقنا العلاّمة المبارك سِيريًّا : حسب تسمية السلف أي من علماء السيرة ، ولقلّما كان يجاريه فيها أحدٌ من شيوخ هذا البلد ، كذلك تأثّر بالوراثة اللغوية زميلنا الجديد بوالده وبجده الكبير ، كما قال في مقدمة كتابه (فقه اللغة) ما نصّه : « وألفيتُ الإقبالَ على الأبحاث اللغوية إحياءً لميلٍ قديم مَوروث ، فطالما قَضيتُ الساعات الطوال مع والدي في شرح المعلّقات أو لامية العرب للشنفرى أو المقصورة الدريدية أو مقامات الحريري وأمثالها من آثار لغتنا ، وكانت المراسلات بيني وبينه حين سافرت إلى باريز ١٩٣٥ للتخصص في الآداب تدور حول القضايا العلمية ولا سيما اللغوية منها .

دراسته العلمية : إنّ ما ذكرناه الآن يدلنا على مرو لَع زميلنا المحتفل به باللغة العربية . وعلى سَيْر قسمٍ من دراسته العلمية التي تتلخص بنوعين مستقلين :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأول منها : مدرسيّ نظاميّ في المدارس الثانوية ، ثمّ في العالية بمعهدي الحقوق والآداب ، وثانيهما : غير مدرسيّ ولا نظاميّ بما تلقّاه على والده من اللغة والادب ، أو بما سمعه في دار الحديث من الشيخ بدر الدين محدّث الشام الكبير .

ومن يشابهْ أبهُ فما ظلم ، فقد أصبح كوالده وجدّه مُربّياً ومُعلّما ، فعلّم العربية في المدرسة التجهيزية ، وفي كليتي الآداب والشريعة التي هو اليوم عميدها ، ثم عمل في تفتيش العربية بالمدارس الثانوية ، وآزر لجنة التربية والتعليم .

أما عمله السياسيّ ما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٨ ، فقد عمل نائباً في المجلس النيابي ، ووزيراً للأشغال ثم وزيراً للزراعة ، فكان في النيابة والوزارة مثال العامل القويّ الأمين ، وله مشاركة في مؤتمر العالم الاسلامي بلاهور ، وفي بعثة وزارة الخارجية الى البلدان الأسيوية .

أما آثاره القلمية الدالة على مبلغه من الفضل ، فمنها ما هو إصلاحيّ واجتماعيّ وقوميّ ، ومنها ما هو لغويّ وأدبيّ ، أعرف من القسم الأول :

١ — رسالته (من مَنهل الأدب الخالد) التي تكلّم فيها عن عناصر الفن وأسرار البيان في القرآن .

٢ — رسالة (نظرة الاسلام العامة الى الوجود) وأثرها في الحضارة .

٣ — (موسوعة الفقه الاسلاميّ) وفيها بيان لفكرة هذه الموسوعة التي تضع أمام الأنظار العالمية أعظم ثروة فقهية عرفها تاريخ الأمم ، معروضة بالطرق الحديثة خدمة للتشريع ، وتنمية للثروة القانونية ، وتغذية للنهضة العربية الحديثة .

٤ — (نحو وَعي اسلامي جديد) وهذه الرسالة هي محاضرته التي ألقاها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في قاعة المحاضرات الازهرية ودعا فيها إلى إصلاح التدريس ، وإلى ان تكون رسالة الازهر باعثة للإيمان الصحيح في العقول والقلوب .

٥ — (الدولة عند ابن تيمية) وهو بحث قدّمه الى اسبوع الفقه الاسلامي الذي انعقد في العام المنصرم بدمشق ، وفي هذه الرسالة بحث عن آراء الإمام العظيم ابن تيمية في الدولة والولاية والخلافة ، ومَن هم أولو الأمر ، ورياسة الدولة وتعيين الامام ، وأنّه منفّذ لا مشرّع ، وأن طاعتـه مقيّدة ، وفصّل شرائطَ انتخاب الإمام ، ووظائف الدولة وتنظيم الحياة الاقتصادية والخلقية ، إلى غير ذلك مما لا يستغني عنه باحث في السياسة والاجتماع .

ومن أبحاثه القومية كتابه (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) وقد جعل القسم الأول منه يشتمل على بحث نظري في القوميّات ، واستعرض فيه تطوّر الأمة العربية وظهور الوعي القوميّ فيها ؛ وأمّا القسم الثاني فقد حدّدَ فيه اتجاهات الأمة العربية الأصيلة وعناصر رسالتها الخالدة .

أمّا مباحثُه الأدبية واللّغوية فأهرف منها :

١ — (فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ) ، وفي هذه الرسالة دراسة تحليليّة مبنيّة على نصوص مختارة اتخذها أساساً لبحثه حسب الطريقة الحديثة المبنية على علم النفس والاجتماع ، وانتقد مَن يتخذون الأخبار التاريخية والأحكام النقدية أساساً لأبحاثهم العلمية .

٢ — (خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد) وهي مجموعة محاضرات ألقاها بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية بحث فيها عن خصائص اللغة الصوتية ، وخصائص الكلمات العربية ، وعن التعريب وطريقة العرب في نقل الالفاظ الاجنبية وعن خصائص معاني الألفاظ العربية وقيمة التخصيص والدقة والتعميم في اللغة وعن آفة الترادف والعموم والغموض ، وعن تحرير اللغة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الجمود والفوضى ، وعن أسباب الخطأ في اللغة ، وصنف أنواع الأخطاء فيها .

٣ — وفي كتابه (فقه اللغة) دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية في تركيب حروفها واشتقاقها ووزنها ، وفي حركتها المتطورة ، وبذلك تصل هذه الدراسة بين تراثنا القومي والنظرات الحديثة في فقه اللغة ، إذ لم يكتف أخونا الجديد الفاضل بما جاء من فقه اللغة مبعثراً في كتبنا القديمة ، بل اطلع على ما ألفه الباحثون من المعاصرين ، ولم يغفل كذلك الانتفاع بكتب الغرب اللغوية ، فقد اتسعت أبحاث فقه اللغة في ديار الغرب وآتت أكلها بعلم اللغة المقارن وبالنظرات الحديثة في علم النفس والاجتماع .

هذا بعض ما أذكر من مزايا الصديق الفاضل والزميل المحتفى به وهنالك جوانب أخرى حرية بالبحث لم يتسع الوقت لتفصيلها ومقتضى الحال يقضي بالإيجاز والإجمال .

عز الدين التنوخي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net